

كيف تلين لغة الضاد للتعبير عن لطائف الفكر ومشاكل العصر؟

عمرو أحمد عمرو

وحدة الترجمة العربية/اليونيدو - فينا

خبرتنا والوعي بثورة المعلومات والتكنولوجيا المتقدمة التي أمدت الإنسان بقدرات رهيبية تفوق قدرات الجن والشياطين في عالم الأساطير؟

• وأخيرا ، هل تلين اللغة العربية لتستوعب الجديد من المصطلحات والمعاني وتظل محتفظة بأصالتها وبجنسيتها المتميزة؟

إن هذه التساؤلات لا تنطلق من فراغ ، فهي حقائق واضحة ، بعد أن تغير الواقع الذي كانت فيه اللغة العربية تغط في سبات إبان فترة التخلف التي دامت قرونا . وقد تبدلت الظروف وتجاوزنا مفترق الطرق ، ومضينا في طريق التقاء الحضارات . ولا بد أن تنهض اللغة مع الحضارة وتعبّر عن الحياة . وسوف تسهم العلوم والفنون في إثرائها ، وتؤدي الترجمة دورا كبيرا في هذا المضمار .

ولقد طلع نهار جديد في تاريخ العرب الثقافي والفكري ، عندما أصبحت اللغة العربية من لغات العمل واللغات الرسمية الست في منظومة الأمم المتحدة . ومعروف أنه تم من قبل اختيار اللغات الخمس في الأمم المتحدة على أساس أنها أوسع اللغات انتشارا في العالم . فالانكليزية والفرنسية يتحدث بها معظم سكان القارتين

عشرات من التساؤلات تقفز إلى أذهان المهتمين بلغة الضاد عما ينبغي الاضطلاع به لمسيرة الزمن وركب التقدم في عالمنا المعاصر .

• كيف نسبح في تيار الحضارة التكنولوجية ، ونوجه تيار الحياة الثقافية إلى حيث نشاء ، لا إلى حيث تقذف بنا الأمواج؟

• كيف نمسك بالزمام ، بعيدا عن الضرب في مجاهل التخمين لنندرك روح التطور؟

• كيف ننتقل من الواقع إلى الممكن ، مروراً بالقضايا الصعبة التي حان أوان حلها منذ زمن بعيد ، ودون أن تصبح أكثر استعصاء؟

• كيف نعيد رسم مجرى الأحداث لقرون مقبلة في غير مجرياتها المنحرفة لقرون ماضية؟

• كيف تلحق اللغة العربية باللغات الأوروبية في التعبير عما يجري من تطورات في عالمنا الحاضر؟ ولماذا لا نطوع لغتنا الفصحى لتخدم كل مصطلحات العلم والتكنولوجيا؟

• وكيف نعبر بلغتنا عما يجري حولنا وما يقع في مجال

الافريقية والآسيوية بالإضافة إلى المتحدثين بهما في أوروبا ، والاسبانية تتحدث بها الأغلبية الساحقة من دول أمريكا اللاتينية ، كما يتحدث الصينية حوالي ربع سكان العالم داخل الصين وحدها . أما الروسية ، فقد اعتمدت على أساس أن الاتحاد السوفياتي برز كدولة عظمى أثناء الحرب العالمية الثانية . وقبل انشاء الأمم المتحدة في سنة 1945 ، كانت دولتان أو ثلاث تسيطر على أكثر من نصف الكرة الأرضية سيطرة لغوية وثقافية وغيرها .

ومنذ إدراج اللغة العربية ضمن لغات الأمم المتحدة ، أصبح واضحا أنه لا بد أن ترقى اللغة العربية إلى مصاف اللغات العالمية في التعبير والاتفاقيات والمعاهدات الدبلوماسية وفي شتى العلوم . وتساءل بعضهم عن معايير العالمية لأي لغة ، وما مدى انطباق تلك المعايير على اللغة العربية ؟ .

والإجابة سهلة ، فمقيار عالمية اللغة يتحقق بمدى قدرة أصحابها على تطويرها لاستيعاب كل ما يستجد من أدوات الحياة المتغيرة ومعانيها وقيمتها وألفاظ حضارتها ، ومدى أصالة كتابها وعلمائها ومفكراتها في التعبير وتناول المفاهيم الانسانية الشاملة . تصير اللغة عالمية بمضمون ما يكتب بها وما يطرحه مفكروها من معان وأفكار وقيم ومفاهيم وألفاظ في شتى فروع المعرفة الانسانية . باختصار ، التعبير عن كل ما يهم الانسان ، والكائنات الحية ، والطبيعة ، بل وما وراء الطبيعة .

وفي كل يوم ينهمر سيل من ألفاظ ومصطلحات جديدة في المجالات السياسية والعسكرية والتكنولوجية والبيئية والاقتصادية والصناعية والزراعية والصحية والفضائية والقانونية ، ويواجه المترجم العربي كل هذا الفيض الجديد ، ولا يجد لذلك معدلا في معاجمه العربية ولا في النشرات والمجلات التي أصدرتها مجامع اللغة العربية في القاهرة وبغداد ودمشق ومكتب تنسيق التعريب بالرباط . ما لدينا ناقص جدا إذا قورن بما يصدر في الشرق أو الغرب من معاجم ودوائر المعارف . ولأن

اللغات الأوروبية متضافرة فيما بينها ، يأخذ بعضها عن بعض بسهولة ويسر . تمدها اليونانية واللاتينية بما تعوزه ، فيسهل عليها الاشتقاق ونخرج علينا كل يوم بجديد . وغدت اللغتان الانكليزية والفرنسية ، في عصر التكنولوجيا قادرتين على التأثير والاكتماسح في مجال المصطلحات . ويواجه المترجمون العرب مشكلة حقيقية : استنباط اللفظ المقابل الصحيح . وكان واضحا عند هؤلاء المترجمين ضرورة البعد عن الألفاظ الدارجة أو العامية أو اللهجات أو اللغة الفصحى المتعجرة ، وكذلك ضرورة توطيد الصلة بالتراث اللغوي والفكري وعدم التهور من شأنه .

وهنا صار العبء ثقيلا حقا . غدت دوائر الترجمة في نيويورك وجنيف وباريس وبغداد وأديس أبابا وفيينا منهكة في أعمال الترجمة ، وثائق وتقارير ورسائل ودراسات في شتى المجالات . العاملون بهذه الدوائر يتوخون ، بكل دقة ، نقل المعارف والعلوم ، بل الفكر العالمي بكل تياراته الحضارية ، إلى اللغة العربية ، لاثرائها بالجديد ، بما ليس في تراثها القديم ، مع صيانة التراث اللغوي وسلامة اللغة العربية . وكانت هذه المسائل موضع مناقشات كثيرة . إذا اقتصر الأمر على التراث العربي ، وإذا أغلق الباب أمام الاجتهاد في كل المجالات ، فسوف نكون بمعزل عما يجري حولنا وبمناى عن ركب الحضارة المعاصرة . ولا يستطيع أحد أن ينكر عامل التأثير والتأثر بين اللغات والحضارات . وكما قدم العرب من قبل للعالم كله ، من علم وفكر وعطاء ، صار ملكا للبشر ، فإن عطاء الحضارة التكنولوجية المعاصرة لم يعد ملكا احتكاريا لأحد .

في عهود سابقة كان فقهاء اللغة ورجالها يقاومون هجمات استعمارية متنوعة ، وكانت اللغة العربية تقف أمام تيار الغزو الأجنبي ، سواء كان تركيا أو فرنسا أو انكليزيا . أما الآن فقد اختلف الحال ! هذه المرة لا يريد قوم فرض لغتهم على قوم آخرين . في دوائر اللغات بمنظومة الأمم المتحدة لا يوجد صراع لغوي بين سائر

اللغات الرسمية . كل لغة لابد أن تعادل الأخرى وتتكافأ معها في كل عبارة بجميع الوثائق والتقارير والدراسات والاتفاقات والمعاهدات .

كان على المترجم العربي أن يخلق في كل آفاق المعرفة ، وعليه أن يسارع إلى الاجتهاد الفوري . والابداع الفردي الذي تتطلبه الحاجة اللغوية ، إنها الحاجة العاجلة كل يوم إلى إصدار وثائق شديدة التنوع بلغة عربية تتكافأ مع تلك اللغات الخمس الأخرى بمنظومة الأمم المتحدة . ليس الهدف مجرد الترجمة والنقل ، أو رياضة الفكر على موضوعات ليست معروفة عند العرب . ولكن الهدف إثراء اللغة العربية لتخدم العلم والحضارة المعاصرة بمصطلحات يتداولها الباحثون والدارسون ، تجنباً للبلبله التي سادت حيناً من الدهر عند بدء حركة التعريب . وبذلت في هذا السبيل جهود حميدة من دوائر الترجمة في منظومة الأمم المتحدة ، بنيويورك ، وجنيف ، وباريس ، وبغداد ، وأديس أبابا . وهي حتى تقرب ، في مجال المصطلحات ، بين الناطقين بالضاد . لقد انطلقت هذه الدوائر ترسي قواعد عديدة بشأن ترجمة المصطلحات العلمية والتكنولوجية ، وأسماء المؤتمرات والهيئات والأعلام واللجان والأفرقة والأصول التي تنقل عنها . وكان ضرورياً الأخذ بالرأي وبالفكرة وبالمحتوى في ترجمة المصطلحات ، وأخذ في الاعتبار رد الكلمات ذات الأصل العربي إلى أصولها .

وفي هذا المسعى ، كان الاهتمام بالاستفادة من مرونة أبواب القياس والاشتقاق . لقد بدأ المعتزلة الدعوة إلى الأخذ بمبدأ القياس في اللغة منذ ألف سنة ، باعتبار أن اللغة يجب أن تكون قياسية قبل أن تكون سماعية . وكان الاهتمام بالتعريب حيناً تعدم القدرة على استنباط مصطلح مقابل . وتساءل كثير من اللغويين عن مدى التعريب المباح ، لكي تبقى لغة الضاد بترائها سليمة من الألفاظ الدخيلة . كانت اللغة الفصحى منذ ألف سنة تتمثل في لغة القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وروائع الشعر والنثر .

وأراد لها بعضهم أن تقف عند هذا الحد . إن اللغة ، في شتى العصور ، وسيلة لا غاية ، واللغة أصدق وسيلة للتعبير عن العصر ، وعن الفكر وعن مشاغل العصر والبلاغة إنما هي أداة لحسن التعبير ، واتقان توصيل الفكرة إلى السامعين . ومن أسف ، ساد وقت كانت البلاغة هدفاً في حد ذاتها . كان الأدباء في تلك الأحقاب يتبارون في اللغة من أجل اللغة . كان هذا معناه الإفلاس في الفكر والعلم . وتغير الحال الآن . لم تعد الفصحى تقتصر على الخاصة . غدت لغة الجميع سماعاً وقراءة وكتابة بعد انتشار التعليم ووسائل الاعلام والوسائل الالكترونية وآلاء التكنولوجيا المتطورة التي صارت إرثاً للانسانية كلها . كان بعض اللغويين يرون أن المعيار في الألفاظ هو التمييز بين ما استعمله العرب من ألفاظ اللغة وتعابيرها أو ما أهملوه أو ما لم ينطقوا به . فهل من المعقول الآن أن نقيس اللغة العربية الفصحى ، كما ينادي بعضهم ، بما استعمله العرب في البادية . كان علماء اللغة والرواة الأقدمون قد قسموا القبائل العربية إلى قسمين اهتموا بأحدهما وأهملوا الآخر . وبنوا فكرتهم على أساس أقرب إلى البداوة والحضارة . فكلما كانت القبيلة بدوية أو أقرب إلى حياة البدو ، كانت لغتها أفصح ، والثقة فيها أكثر . وكلما كانت متحضرة أو أقرب إلى حياة الحضارة كانت لغتها محل شك ومثار شبهة ، وكلما كانت منقطعة الصلة بالعالم الخارجي كانت لغتها أفصح وأنقى ، وكلما كانت وثيقة الصلة بالأمم المجاورة ولها علاقات من أي نوع كان مع الدول الأجنبية ، كانت لغتها محل طعن وموضع ريب . وفكرتهم في هذا أن الانعزال في كبد الصحراء وعدم الاتصال بالأجناس الأجنبية يحفظ للغة نقاوتها ويصونها من أي مؤثر خارجي ينحرف بالألسنة ويدخل الضيم والوهن على اللسان والفصاحة . وكان الفارابي ، مثلاً ، يروي في كتابه «الألفاظ والحروف» قائمة محددة بالقبائل التي يستشهدون بها وتلك التي لا يستشهدون بها . ومع التطور ، تغير الحال وتبدل . لم تعد العبرة بما استعمله العرب الأقدمون فعلاً من مشتقات

ومصطلحات ، بل العبرة بما يمكن أن يستعملوه الآن . ليس المعول على ما وقع ، بل المعول على ما نحن عليه الآن ، وما يمكن أن يحظى باجماع أهل العربية . وليس معنى ذلك الدعوة إلى أن تحمل الألفاظ الدخيلة محل الألفاظ الأصيلة في اللغة .

هذا كله لم يكن معناه اننا نبحث عن حضارة . فنحن أمة لها حضارة ولها تراث ولها شريعة . وكلها لها جذورها الضاربة في أعماق التاريخ وفي رحم الحياة ! وإنما كان المطلوب تقديم حلول ناجعة لمشكلات في الترجمة ، وبناء نهج للترجمة متكامل ، لا يعرف التناقض ليرتفع الصرح شامخ البنيان . وهنا كانت أهمية اختيار المترجمين الأكفاء إلى اللغة العربية ، للقيام بأمانة النقل بين العربية وغيرها من اللغات الأخرى الواسعة الانتشار التي تحتك بها مباشرة . وعقدت مسابقات دولية عديدة لهذا الغرض ، من أجل اختيار من تتوافر فيهم صفات وقدرات ، وهو موضوع آخر قد أتناوله في مرة قادمة .

ومما لاشك فيه أن لغة العلم سوف تزدهر بنهضة البحث العلمي في العالم العربي ونقل التكنولوجيا إليه . فالحاسبات الالكترونية والاختراعات الحديثة دخلت تقريبا كل البلدان العربية ، ودخلت معها ألفاظ لا عهد للغة العربية بها من قبل . وسوف يقبل الناس من كتاب وأدباء وعلماء وطلاب على تداول الألفاظ والمصطلحات الحديثة ، كما حدث أن شاع الكثير منها مثل : الاستشعار من بعد والبث التلفزيوني والارسال البرقي المصور ؛ والتوابع الاصطناعية والتحويلات الالكترونية المصرفية ، ومصارف المعلومات ، والموارد الخارجة عن الميزانية ، وحقوق السحب الخاصة ... ونظم الاحالة إلى مصادر المعلومات ، ومصادر الطاقة الجديدة والمتجددة ، ومصطلحات نزع السلاح والعلم والتكنولوجيا والطاقة ، والفضاء ، واختصرات ، وألفاظ النسب إلى الجمع مثل أقليمي وجراثيمي .

كانت هناك في أعمال الترجمة ضوابط كثيرة يلتزم بها

المترجمون تجنباً لتبعية الألفاظ والمصطلحات الفنية الدقيقة ، ولكي يسهل ، عند الضرورة ، ردها إلى أصلها المنقول عنه . عرف المترجم العربي ألا تقعد به الذرائع عن بلوغ ضالته من اللفظ المأنوس وعرف طرائق النسخ والسلك والمسوخ والمصالاة ؛ فالسلك أن يأخذ المترجم المعنى دون اللفظ ، والمسوخ أن يأخذ المترجم المعنى ويغير بعض اللفظ ، والمصالاة أن يأخذ المعنى ويحوله عن وجهه . أما التخرص (conjecture) والخبط (striking at random) فهما رذيلتان يتجنبهما المترجم . وعليه ، عند النقل إلى اللغة العربية ، أن يفرق ، في التعبير ، ما بين النثر العلمي والنثر الأدبي والشعر . فلكل خصائصه في الألفاظ والعبارات والموضوع . فالأول يعبر عن الأفكار بقدر مساو من العبارات ، رغبة في إبراز الحقائق المجردة دون مبالغة فيها ، ودون التأثير في الأذهان بالصور الخيالية والمجازات . أما النثر الأدبي أو الشعر ، فإن الأمر لا يقتصر على مدلولات الألفاظ ، إذ يتعداها إلى ما توحيه تلك المدلولات من ظلال المعاني ، وما تثيره في الذهن من صور وأخيلة تؤثر على السامع أو القارئ . وتستتج فيها الأذهان من المعاني فوق ما تحتمل تلك الألفاظ والعبارات . ولا يخفى على أحد أن الشعر يتضافر فيه ايقاع داخلي بكل ما يمثله من خصائص فكرية وشعورية ولا شعورية ، وايقاع خارجي قادر على تجسيد ذلك العالم الداخلي وما يعتمل فيه .

وقليلون من استطاعوا أن ينقلوا شعرا إلى شعر في اللغة العربية . وبعد المترجم أميناً إذا استطاع أن ينقل الشعر إلى لغته . وعندما عرّف «فولتير» الشعر بأنه «موسيقى النفس» ، جعل ذلك سبب ما في ترجمة الشعر من صعوبة ، إذ تضعع بالترجمة موسيقاه ، وهي جزء لا يتجزأ منه . كما أكد أحمد أمين أنه يستحيل ترجمة شعر من لغة إلى شعر في لغة أخرى ، إذ تذهب الترجمة بما للشاعر من قدرة فنية وطريقة أداء . وما يمكن ترجمته هو المعنى الذي حواه الشعر وما فيه من تصور وخيال ، وما يحتويه من عواطف عامة . وفي كتاب «الحيوان»

للجاحظ ، قال «ان الشعر لا يستطيع أن يترجم ، ولا يجوز عليه النقل ، ومتى حوّل تقطّع نظمه ، وبطل وزنه ، وذهب حسنه ، وسقط موضع التعجب ، لا كالكلام المشور» .

ورغم أن بعضهم يرى أن من خصائص اللغة العربية في تعبيراتها أن الكلمة الواحدة تحتفظ بدلالاتها الشعرية المجازية ودلالاتها العملية الواقعية في وقت واحد بغير لبس بين التعبيرين ، فن الواضح أن هندسة الجملة تختلف في النثر العلمي عنها في الشعر ، أي أن تركيب المفردات أو تركيب القواعد والعبارات يختلف . وليس من المستصوب

وضع أسوار حديدية تفصل ما بين الأدب والعلم . ولا بد للغة أن تعبّر عن لطائف الفكر وعلوم العصر !

وفي كل الجهود المبذولة في دوائر الترجمة ، أرسيت بالاجتهاد أسس وقواعد غاية في الأهمية في ترجمة المصطلحات وصوغها وتعريبها ثم توحيدها . وروعت كذلك القرارات التي أصدرها مجمع اللغة العربية في القاهرة تسهيلا لعمل المترجمين وواضعي المصطلحات العلمية والفنية والصناعية أوردها أدناه . وجذا لو تعدد دوائر الترجمة بالأمم المتحدة إلى إصدار معجم موحد تسهّل به العمل وتتدارك به النقص .